الأسس النظرية للاشتراكية العلمية (1)

مسألة العلاقة بين الفكر والوجود

.....

ان هذا يعني ان الاشتراكية العلمية واسسها النظرية لا تشكل عقيدة جامدة نهائية ، بل هي تتطور وتتعدل وتغتني بنشاط الانسان وممارساته الاجتماعية والفكرية . فالمنطلق الجدلي ، هو اساسا، منطق ضد الثبات والجمود . والنظرية الاشتراكية العلمية تصبح قالبا جاهزا، وعقيدة جامدة ، اذا نظر اليها خارج التاريخ .

ان النظرية الاشتراكية العلمية لا تفهم فهما اشتراكيا علميا ، الا بوضعها في اطارها التاريخي . انها ليست خارج التاريخ ، بل هي نتيجة تطور سير التاريخ ، وتحاول أن تعبر عن مسيرته ، وتدفع بها الى الامام ، ولذلك فهي تغتني وتتعزز من خلال فعلها هي في التاريخ ، ومن خلال فعل التاريخ فيها .

ولكن مع ذلك ، وهذا ما يعطيها طابعا علميا ، هناك بعض الاسس المبدئية والمنهجية التي تعتبر صالحة ، والتي تشكل المرتكز

---

(1) نشرت هذه المحاضرة بجريدة المحرر ايام 28 — 29 — 30 غشت 1975 وكانت قد القيت في ندوة نظمتها النسبية الاتحادية بالدار البيضاء قبل ذلك بأيام .
هذا وقد حافظنا بمقدمة المحاضرة وخاتمتها لطابعهما الظرفي !!

5

الاساسي للبناء النظرى الذى تتنفس فيه ، وفى اطاره ، الاشتراكيـــة العلميـــة كمنهج وتطبيق . ويهمنا هنا أن نحلل بأكثر ما يمكن من التبسيط، هـــذا المرتكـــز الاساســـى .

الاشتـــراكيـــة الطـــوبـــاويـــة

من المعروف ان الاشتراكية العلمية ، قد وصفت بـــ «العلمية» لانها تختلـــف عن الاراء والدعوات والمذاهب «الاشتراكية» التي عبرت خلال مختلف العصور ، بشكل او آخر ، عما تعانيه الانسانية من عذاب وظلم اجتماعي ، وذلك فى شكل نداءات تخاطب الضمائر ، وتكتسى طابـــع الوعظ والارشاد ، فى معظم الاحيان . وخلال القرن الثامن عشر ، القرن الذى عرفت فيه اوروبا تطورا هائلا فى الصناعة مما جعل النظـــام الرأسمالي يكشف عن حقيقة الاستغلال المرافق له ، اكتست هـــذه الدعوات الاشتراكية طابعا اكثر جدية ، معتمدة على بعض التحليـــلات «العلميـــة» ومنادية بمشاريع «تطبيقية» خيالية يتحقق فيها ما كانـــت تصبو اليه البورجوازية الاروبية من اقامة دولة الحرية والمساواة والاخاء والعدل . وبما ان هذه الدعوات الاشتراكية والشيوعية لم تكن مبنية آنئذ على تحليل دقيق وشامل لتطور التاريخ ، ولتناقضات النظام الراسمالى نفسه ، وبما انها لم تستطع ان تتبين ، نتيجة ذلك ، الطريق العملى ، لاقامة المجتمع الاشتراكي ، مجتمع الحرية والعدالة ، فلقد بقيت فـــى نهاية الامر مجرد تمنيات خيالية طوباوية ، تتحرك داخل النظام الراسمالى نفسه ، لا خارجه . لقد كانت البورجوازية الاوروبية ، فى مرحلـــة عنفوانها ، تنادى على صعيد الفكر ، وعلى صعيد الاصلاح الاجتماعي ، بسيادة العقل وسيادة القانون ، وسيادة العدالة . ان صراعها مـــع الاقطاع جعلها تعتمد العقل وتسوده (تجعله سيدا) ، فنادت بدولة الاخاء والمساواة ، دولة العقل وحده . هذا ما كانت تطمح اليه البورجوازيـــة الاروبية عندما كانت طبقة صاعدة تناهض ظلام القرون الوسطى ونظامها الاقطاعى انكسى ، فانتشرت لذلك النظريات المادية ، وسادت نزعـــة الالحـــاد والعداء للدين ، لان الدين — الدين المسيحي فى اوروبـــا — كان مندمجـــا فى النظام الاقطاعـــى يخدمه ويزكيه ويسخـــر جماهير المؤمنيـــن لصالحـــه .

ولكن ، عندما تطور النظام الراسمالي الى درجة كافية ، اى عندما نمت قوى الانتاج الي درجة اصبحت معها علاقات الانتاج ، من النوع الذى لا يحقق ، ولا بامكانه ان يحقق ، ذلك الحلم ، حلم دولة العدل والمساواة ، برز الاستغلال بشكل اوضح ، واتضحت معالم تركيب المجتمع ، وانقسامه الي طبقات تستغل الواحدة منها الاخرى افظع استغلال ، وبكيفية جماعية عامة ، فأصبح الاستغلال الطبقى هو الواقعة الاساسية فى المجتمع الراسمالى . واذن فما كانت البورجوازية الاروبية ترمي الي تحقيقه يوم كانت طبقة ثورية تصارع الاقطاع اصبح الان غير ممكن ، فى ظل مجتمع مبنى علي اساس يكرس الاستغلال ويوسعه ، ويزيد فى شدته وشراسته .

وهنا ، فى هذا الوقت بالذات ، قامت فى فرنسا صيحات ضد الاستغلال ، صيحات تستوحى افكار البورجوازية يوم كانت تعد لثورتها ، افكارا تريد ان تبني دولة العدل ، دولة الحق ، عن طريق اقامة مشاريع نموذجية فكان ذلك النوع من الفكر الاشتراكى الذى اعتمد الخيال ومخاطبة العقول والوجدان ، وضرب المثال . ولكن، علي الرغم من هذا الطابع الخيالي الطوباوى الذى ساد فى هذا النوع من الفكر الاشتراكي ، فلقد كان فى تفكير رواده جوانب ايجابية ، منها انهم ابرزوا بكيفية اوضح ، حقيقة المجتمع القائم ، حقيقة انقسام المجتمع الي طبقات ، بل طبقتين : طبقة مستغلة (بالكسر) وطبقة مستغلة (بالفتح) . والشيء الذى كان ينقصهم هو النفاذ الى سبب هذا الانقسام الطبقي ، لان تغيير الامور لا يتم الا بمعرفة اسبابها . لم تكن آراؤهم مبنية على تحليل الواقع ، علي فهم ما هو كائن ، بل كانت تهتم فقط بما يجب ان يكون .

الاقتصاد السياسى الانجليزى

وكما عمل تقدم وسائل الانتاج وتطور الصناعة واتساعها ، على قيام هذا الفكر الاشتراكي الطوباوى ، عمل من جهة اخرى ، على قيام ابحات ودراسات جديدة فى ميدان الاقتصاد الراسمالى نفسه . فمع قيام هذا النظام ، وانتشار المبادلات وتكاثرها ، اتضحت للمفكرين حقيقة القيم التي يعطيها الناس للاشياء . لقد كانت قيمة الشيء تفسر

من قبل بمنفعته او بعوامل بسيكولوجية مماثلة ، كتلك التي تجعل الانسان يرغب فى هذا الشيء ولا يرغب فى الشيء الآخر . ولكن مع تقدم المبادلات وآليات الاقتصاد برز للعيان ان قيمة الشيء ، قيمته الحقيقية ، راجعة الى العمل المنفق فيه . فالاساس هنا ، ليس رغبات الناس وشهواتهم ، بل الاساس — اساس القيمة التي تعطي للشيء — هو ما ينفق فيه من جهد وعمل . وتلك ملاحظة سجلها ابن خلدون من قبل ، ولكن ابن خلدون كان منظرا للتاريخ ، ولم يكن محللا للاقتصاد ، ولذلك لم يبن على ملاحظته هذه نظرية فى الاقتصاد ككل ، ولم يكن فى امكانه ان يفعل ذلك فى وقت لم يكن قد برز فيه بشكل كاف دور الاقتصاد فى آلية التطور العام . ولذلك كان لابد من انتظار القرن الثامن عشر ، القرن الذى تطورت فيه وسائل الانتاج بشكل لم يشهده التاريخ قبل ، حتى يتصدى باحثون مختصون الى الموضوع . وكان اكتشاف حقيقة قيمة السلعة المنطلق الذى تاسس عليه الاقتصاد السياسي .

ومع ذلك فقد ظلت هذه الدراسات الاقتصادية الجديدة مؤطرة فى اطار النظام الراسمالي نفسه ، لقد كانت تشرح آلياته ، ولكنها لم تكن تتجاوز ذلك الى عوامل وجوده ، واسباب الاستغلال المرافق له . وهذا ما اكتشفه ماركس حينما لاحظ ان العامل لا يأخذ من قيمة الشيء الذى ينتجه الا جزء ضئيلا ، اما الباقي ، وهو الجزء الاكبر — وسماه ماركس بفضل القيمة — فيستولي عليه صاحب المعمل ، مالك الراسمال . ان هذا «الباقي» اى فضل القيمة يتراكم عند صاحب المعمل ، فيزيد زيادة مطردة فى راسماله . وعليه فان فضل القيمة هذا هو المورد الاساسي لنمو النظام الراسمالي ، هو المرجع الحقيقي لما يتصف به هذا النظام من استغلال وغصب ، هو السبب فى قيام طبقة تزداد غنى وثروة وسيطرة، وطبقة اخرى عاملة، لا تنال من عملها الا ما يحفظ لها حياتها.

الفكر الاشتراكى الطوباوى ظهر وانتشر بفرنسا خاصة ، والفكر الاقتصادى ظهر وانتشر فى انجلترا خاصة .. لان الصناعة فيهما كانت اكثر تقدما مما كانت عليه فى باقى البلاد الاروبية . ولذلك ارتبطت النظريات الاشتراكية الطوباوية بالمفكرين الفرنسيين .

وارتبطت الدراسات الاقتصادية بالمنظرين الانجليز .. كل ذلك فى القرن الثامن عشر ، واوائل القرن التاسع عشر .

الفلسفة الالمانية تعكس واقع المانيا المتأخر

فى هذا الوقت بالذات كان هناك بلد اوربي آخر تأثر بحكم الجوار بالافكار الليبرالية التي نشرتها البورجوازية الفرنسية ، وكانت توجد فيه بعض الصناعات . ولكنه كان متأخرا عن البلدين الرائدين انجلترا وفرنسا . كان هذا البلد هو المانيا التي فشلت فى تحقيق ثورتها — رغم محاولات عدة — والتي بقيت تعيش فى ظل نظام اقطاعي على راسه الملكية البروسية . لقد ارتد الفكر الالماني الى ذاته . وراح يحلق فى اجواء الماضي مفلسفا التاريخ ، باحثا فيه ، ومن خلال تطوره ، عن حل امثل . لقد كان هناك قديم لم تتوفر الشروط بعد لتجاوزه ، وكان هناك جديد لم يستطع فرض نفسه كواقع سائد مهيمن . فانعكس هذا الواقع القديم — الجديد فى الفكر الالمانى جملة ، فاتجهت الفلسفة هنالك الي محاولة الجمع بينهما ، وايجاد حل لتناقض الذات مع الموضوع . هذا التناقض الذى صيغ طرفاه صياغة فلسفية مجردة لم تكن فى واقع الامر ، سوى تغليف فلسفى للواقع القديم — الجديد الذى اشرنا اليه . ولقد عرفت هذه المحاولة ارقى صورها الفكرية عند هيجل . لقد كانت هناك راسمالية خجولة ، وفكر ليبرالى مستورد، الى جانب بنيات اقطاعية اجتماعية واقتصادية وفكرية ، وكان هيجل فيلسوفا للدولة ، كان من اكبر ايديولوجى الدولة البروسية ، فحاول ان يجد حلا لهذه التناقضات ناظرا اليها فى كليتها وترابطها . ان البحث عن الحل ، مع الرغبة فى الاحتفاظ بالقديم الذى ينفيه الجديد ، والخروج به فى صورة جديدة تركيبية ، ان محاولة ادخال هذه المتناقضات فى كل واحد ، والاعتراف بها كمتناقضات يجب ان تتجاوز الى حل آخر ، الي تركيب جديد .. ذلك هو جوهر التحليل الديالكتيكى الذى قام به هيجل . لقد كانت هذه المحاولة اصيلة لانها نفذت الى جوهر التطور ، ونظرت الي التاريخ والفكر لا على اساس تصور ساكن جامد ، بل على اساس فهم جديد يقوم على اعتبار الصيرورة الحقيقية الوحيدة .

الاتجاهات الفلسفية فى أوروبا ومغزاها الايديولوجى

لقد كانت نظرة هيجل شمولية الى ابعد حد . نظر بنفس النظرة الى تطور التاريخ ، وتطور المجتمع ، وتطور الوعى الفردى ، وتطـــور الفكر الانسانى كله ، وبعبـــارة اخرى ، نظر الى الوجود والمعرفة معا، بهـــذه النظـــرة الديالكتيكيـــة الشـاملـــة .

وهكذا فبينما كان الصراع بين الحسيين والعقليين فى مجال المعرفة، وبين الماديين والمثاليين فى مجال الوجود ، بينما كان هذا الصراع شديدا محتدما ، قام هيجل بتأسيـــس فلسفة جديدة تتجاوز هذا الصراع وذاك .. ويجب ان لا يخفى علينا الطابع الايديولوجى الواضح لهذا الصـــراع الفلسفى ، لقد تبنت البورجوازية الانجليزية والفرنسية وجهة النظـــر الحسية ، المادية ، رغبة منها فى هدم الاسس النظرية التى يقوم عليها الفكر المثالى الذى يشكل الاطار النظرى الملائم للنظام الاقطاعـــى. ان التيار المادى فى المعرفة الذى ساد فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر لم يكن فى واقع الامر سوى تعبير فلسفى عن مصالح الطبقة البورجوازية، الطبقة التى ارادت ان تقلل من استقلال العقل وتسحب منه الاولوية التى عرفها فى عصر النهضـــة ، نظـــرا لارتبـــاط الفلسفـــات العقليـــة بالتأثيرات الاقطاعية والايديولوجية الكنسية الغيبية . وكما يحدث دائمـــا فقد استنجـــد اديولوجيو البورجوازية بالمعارف العلمية التى كانت تنمو بفضل اصطنـــاع المنهاج التجريبى ، واعطت لهذه المعارف تأويـــــلا ايديولوجيا يخدم مصلحتها وايديولوجيتها ، كما استنجد التيار العقلـــى المعارض ، هو الآخر بالفلسفات السابقة ، وببعض جوانب الفكر العلمى، الرياضى منه بالخصوص للرد على ادعاءات الخصوم .. ولقد توصـــل هيجل الذى قلنا قبل انه كان يصدر فى تفكيره ، بوعى او بغير وعـــى، عن الرغبة ، فى الجمع بين القديم والجديد ، بين الاتجاهات المتعارضة، توصل هيجل الى فهم المعرفة على انها صيرورة ، على انها تطـــور .. ولكنه وهو المفكـــر المثالى الذى يعيش فى كنف الاقطاع لم يتمكن مـــن ادراك الامور كما هى فى الواقع ، فقلب الوضع راسا على عقـــب ، واعتبر الجدل فى الافكار هو الاساس ، ونظر الى الوعى البشـــرى منـــذ العصـــور الغابرة الى عصره ، كواقع موضوعى يتطور ذاتيا بحكـــم قوانين الجـــدل ، ساعيا نحو تحقيق الوحدة والانسجام بينه وبين الطبيعة.

التي تجلى فيها اول مـــرة ، كفكـــر لا يعى ذاته نتيجـــة انغمـــــاره واغترابه فيها . ان تطور الفكـــر اذن هو هذا الجهاد الذى يقوم بـــه الوعـــي ليسترجع كيانه ، وقد اغتنى ويغتني باستمرار ، مما يحقـــق وحدة الفكر والوجود ، ويحقق بالتالي ذلك المطلق الذى تنشده الصيرورة.

وفى هذا مسحـــة قوية من التفكير الصوفي المسيحى . فالمسيحيـــة تجعل من المسيح الهـــا وبشـــرا فى آن واحد ، جاء ليخلص الانسانيـــة من شرور الحياة الدنيـــا التي ترجع الى الخطيئة الاصلية ، فكان المسيح فـــداء للانسانيـــة ، واصبح على الكنيسة من بعده مواصلة القيام بنفس الرسالة، الى ان تتحقق اهدافها، ويسيطر الخير على الشـــر .

من هنا يلتقي هيجل مع الاشتراكيين الطوباويين لانه بنى فلسفته على اعطاء الاولوية للفكر فى التطـــور والاصلاح والتغيير، مقللا من شان العوامل الاجتماعية والاقتصادية، بل معتبرا هذه نتاجا لتطور الفكر نفسه.

كان ذلك هو الجو الفكرى العام الذى ساد فى اوروبا فى القـــرن الثامن عشر واوائل القرن التاسع عشر .. والذى كان يعكس مرحلـــة معينة من تطور قوى الانتاج فى البلدان الثلاثة المذكورة . ولكن تطور قوى الانتاج لا يتوقف ، فالصناعة تزداد اتساعا وعمقا ، والمبادلات تـــزداد انتشـــارا ، والاستغلال يزداد استفحالا ، فكان لابد من تطور مواز على صعيد الفكـــر والوعى ، على صعيد التحليل والتفسيـــر .

مـــاركـــس والمفهـــوم المـــادى للتـــاريـــخ

تأثر ماركس بهذه التيارات الفكرية الثلاثة فهضمها ، وهضـــم الفلسفة الهيجلية خاصة ، واهتم خلال فتـــرة هامة من حياته بدراسة الاقتصاد السياسي ، فقام بابحاث طويلة شاقة ، كل ذلك فى وقت احتك فيه بنضالات العمـــال ومارس النضال معهم .. فتمكن بفعل ذلك كله ، وبوحى من تطور الامور فى عصـــره ، الى اكتشاف خصوبة الجـــدل الهيجلي وعقمه فى آن واحد . اما خصوبته فكامنة فى كونه منطقا للتطور، واما عقمه فراجع الى انه قلب الوضع ، فجعل تطور الفكر اساسا لكـــل تطـــور .. من هنا قـــام ماركس بتصحيح الوضع ، فجعل الواقـــع الاجتماعى ، التاريخي والاقتصادى ، هو الاساس الذى يقوم عليه البناء

الفكـــرى ، وبالتالي ربط الفكر بالواقع ، بدل ربط الواقع بالفكر كمـــا فعل هيجل ، ذلـــك هو المفهـــوم المادى للتاريـــخ .

اكتشافان رئيسيان ، بني عليهما ماركس صرح تفكيره : فضل القيمة بوصفها العامـــل الاول فى تراكم الراسمال وقيام طبقة راسمالية مستغلة تمتـــص دمـــاء طبقة العمال الماجورين ، والفهم المادى للتاريخ الذى يرى ان التاريخ كله عبـــارة عن صراع بين الطبقـــات التى تتناقض مصالحها. ولم يكن هذا الاكتشاف اعتباطا ولا نتيجة تأمل مجرد ، بل نتيجة منهـــج عامى لا يختلف فى شيء عن المنهاج الذى قامت عليه العلـــوم الحديثـــة. فقد حلل ماركـــس ظاهرة معينة ، هي الاقتصاد الراسمالي ، فاكتشـــف قانون تطورها الذاتى ، وكانت التجارب التى تخوضها شعوب اوروبـــا تؤكد هذا القانون .. ثم بعد اكتشـاف القانون والتأكد من صحته ، عمد الي تعميمه على مختلـــف حالات التطور الاجتماعي والتاريخ . فكان هذا التعميم هو الاساس النظرى الذى قامت عليه الاشتراكية العلمية ، والذى يلخصه ماركس فى عبارته المشهورة : ليس وعى الناس هو الذى يحـــدد وجودهم بل بالعكس من ذلك ان وجودهم الاجتماعي هو الذى يحدد وعيهم.

فما معنى هذه العبارة ، وما هى ابعادها الفلسفيـــة ؟

أشكال الوجـــود وأنواع الوعـــى

فى هذه العبارة التى تلخص جوهر الفهم المـــادى للتاريـــخ ، وبالتالى المنهجية الاشتراكية العلمية ، نجد حدين متناقضين — او هكذا كان ينظـــر اليهما طوال تاريخ الفلسفة الي وقت هيجل وماركس — هما : الفكر والوجود . والمشكلة الاساسية التى شغلت الفلاسفة منذ اقدم العصـــور ، وخاصة فى العصر الحديث ، هي مشكلـــة العلاقة بينهما . ايهما اسبـــق : الفكر أم الوجـــود . فى الاصطلاح الفلسفـــى يطلق على الذيـــن يقولون باولوية الفكر اسم «المثاليين» وأما الذيـــن يقولون بأولوية الوجود على الفكر فينعتون ب «الماديين» .

وهنا ارى من المفيـــد الوقوف قليلا عند هذه المسألة خصوصـــا وانا اتحـــدث الي الشباب ، وهم اكثر النـــاس انشغالا بها .

لنفـــرق اولا بين مستويـــات ثلاثة فى الفكـــر والوجود .

ـ هناك اولا الفكر الفردى والوجود الفردى ، فكرى انا وفكرك انت ووجودى انا ووجودك انت كشخصين لكل منهما وجوده الجسمى والاجتماعى والفكرى الخاص .

ـ وهناك ثانيا الفكر الاجتماعى (او الوعى الاجتماعى) والوجود الاجتماعى ، فالطبقة البورجوازية لها وجود اجتماعى خاص ، يتجلى فيما تملكه من ثروات ، وما تستهلكه من منتوجات ، وما تتقيد به من قواعد وعادات اجتماعية تجعل سلوكها العام مطبوعا بطابع خاص ، ثم هناك الاراء والافكار والمعتقدات والفلسفات التى تتبناها هذه الطبقة والتى تنسجم ، او على الاقل لا تتعارض بشكل مفضوح مع نمط وجودها الاجتماعى . وفى هذا الجانب الفكرى هناك ما هو موروث تفهمه الطبقة البورجوازية فهما خاصا تستوحيه من التأويل الذى تقوم به لجعل وجودها لا يتناقض مع هذا الارث الفكرى الذى لا يخلو من عناصر تندد بالظلم الاجتماعى . وهناك ايضا ما هو نابع عن وضعيتها فى مرحلة من مراحل تطورها ، يعبر عن واقعها وتطلعاتها . وقس على ذلك مختلف الطبقات والفئات .

ـ ثم هناك ثالثا الوجود والفكر بالمعنى الميتافيزقى العام . الوجود ككل ، بقطع النظر عن كل نسبة او تقييد . هذا الكون منذ وجوده .. ما مصدره .. هل كان هكذا منذ الابد ، ام انه نشأ بنفسه على شكل ادنى ثم تطور بنفسه وبقوانينه الذاتية الى شكل آخر اعلى .. فى مقابل هذا الوجود الميتافيزيقى ، هناك الفكر او العقل او الروح بهذا المعنى الميتافيزيقى العام .. هل افكار البشر وعقولهم وارواحهم نشأت هكذا مع الطبيعة ومع نشوء الكون وتطوره ، ام انها متفرعة او منبثقة ، بشكل من الاشكال عن فكر او عقل او روح ابدية سرمدية سامية كاملة .

بعد ان ميزنا بين مستويات الفكر والوجود بهذا الشكل نعود الى فحص العلاقة بينهما ، وهنا نجد انفسنا امام تيارين فلسفيين يعطى احدهما الاولوية للفكر ، والثانى يقول بأولوية الوجود.

العلاقة بين الوجود والوعى : المثالية والمادية

فى كل العصور تقريبا وجد هناك من يقول بأن الفكر الفردى

راجع الى الوجود الفيزيولوجي للفرد .. فأفكارك هى نتيجة احساساتك .. واحساساتك هي نتيجة عمل العين والاذن .. اى الحواس الخمس، واذن فالاولوية للاحساس . قال به السفسطائيون فى العصر اليونانى، وقال به بعض المفكرين المسلمين ، وقال به بشكل حديث بعض فلاسفة القرن السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر ، وهناك من يقول به الى اليوم .. فمن جورجياس وبروتاجوراس الفيلسوفين السفسطائيين اليونانيين ، الى النظام المعتزلى وابن تيمية السلفي ، وبركلي القسي الراهب الانجليزى والفلاسفة التجريبيين الانجليز وكوندياك الفيلسوف الحسي الفرنسى ، الى فلاسفة الوضعية التجريبية الحاليين .. هناك دوما فكرة واحدة ، مع اختلاف طريقة التحليل ومستوياته .. فكرة كون الاحساس اساس الفكر .

وكما وجد هذا التيار الحسي — الذى لم يكن ماديا دوما ، اذ من الحسيين بهذا المعنى مثاليون متطرفون — وجد تيار آخر مقابل هو التيار العقلاني الذى يعلى من شأن العقل ، ويعتبره مزودا بمبادىء وافكار فطرية هى اساس المعرفة ، مقللا من شأن الحواس ، معتبرا معارفها غير يقينية ولا صادقة ..

وبالمثل ، وربما كنتيجة لذلك ، وجد فى كل العصور الفلسفية من يقول بأسبقية الوجود ، اى المادة على الفكر ، ومن يقول بالعكس، بأسبقية الروح على المادة يتعلق الامر هنا بالنظرة الميتافيزيقية لتكون ، هل العالم موجود بنفسه منذ الازل ام انه من خلق وانشاء قوة روحية عليا ، يعبر عنها الفلاسفة بأشكال مختلفة .

طرحت هذه المسألة فى الفكر اليوناني ، كما طرحت فى الفكر الاسلامى ، ولكن هذا الطرح لم يكن واحدا فى اسسه وتفاصيله ، بل اختلفت الطريقة التي طرحت بها المشكلة فى كلا الفكرين .

المشكلة بين الفكر اليونانى والفكر الاسلامى

لقد تأثر الفكر الفلسفى فى الاسلام بافلاطون وارسطو اكثر مما تأثر بغيرهما .. ورغم ان هذين الفيلسوفين مثاليين بالمعنى الذى شرحناه آنفا ، الا انهما كانا يفكران فى اطار بنية الفكر اليوناني التي تستند الى فكرة اساسية ، وهى «لا شيء من لاشيء». فالفكر اليونانى

لا يتصور وجود شيء عن عدم .. بل لابد أن يكون هناك شيء سابق له ، وهكذا فالله عند افلاطون هو صانع للعالم ، صنعه من مادة قديمة غير متعينة ، مادة كانت موجودة ولم يكن وجودها متوقفا على خلق وارادة هذا الصانع . اما ارسطو فقد جعل الهه محركا للعالم فقط ، عن طريق شوق العالم اليه . فهو غير معنى بهذا العالم، لانه مشغول بجماله وكماله .. وشوق العالم اليه هو مبدأ الحركة في هذا الكون المادى القديم .. خلاصة القول ان فلاسفة اليونان، حتى المثاليين منهم لا يقولون بالخلق ، فهم لا يتصورون الخلق من لا شيء .. فالعالم لديهم قديم .. والله صانعه او محركه ..

اما في الفكر الاسلامى فالمسألة تختلف . ان الفكر الاسلامى ينطلق من مبدأ اساسى هو الخلق : الله خلق العالم من لا شيء . قال له كن فكان .. وقد حاول الفلاسفة المسلمون التوفيق بين هذين التصورين المختلفين ، التصور اليوناني والتصور الديني الاسلامي . فنجحوا في بعض التفاصيل ، وقاموا بتحليلات رائعة ، ولكنهم لم يستطيعوا التغلب على جوهر المشكل . ولعل عظمة الغزالى كمفكر وفيلسوف كامنة في كونه حلل في كتابه تهافت الفلاسفة بنية الفكر اليوناني وابرز التعارض والتناقض بينها وبين بنية الفكر الاسلامي في هذه المسألة الاساسية، مسألة قدم العالم او حدوثه ، ولذلك كفر الفلاسفة بسبب هذه المسألة ، والمسائل المرتبطة معها مباشرة «علم الله للجزئيات وبعث الاجساد» .

وعندما رد ابن رشد على الغزالي لم ينكر المشكلة ، وانما انكر على الغزالى تكفيره للفلاسفة .. فالمسألة عند ابن رشد لا تستوجب التكفير او عدم التكفير .. لانها ناتجة عن الرغبة في اكتناه اسرار الوجود والبحث عن الحقيقة . وهذا شيء مشروع يقبله العقل ويوصيه به مثلما يقول به الدين ويحث عليه . ان العالم في نظر ابن رشد فيه شبه من القدم ، وشبه من الحدوث ، فمن نظر اليه من الزاوية الاولى قال عنه انه قديم ، ومن نظر اليه من الزاوية الثانية قال عنه انه حادث .. وليس هناك راى حازم في المسألة . وكأني بابن رشد يقول ان المسألة كلها مسألة فرضية . فهناك من يفترض قدم العالم ويستنتج منها ما شاء من النتائج ، وهناك من يفترض حدوثه ويستنتج ما شاء من النتائج ، والمهم هو جعل النتائج

تتفق مع بعضها بعضا وهو امر ممكن ما دام هدف كل من العقل والوحي الوصول الي الحقيقة وماداما يجملان منها الهدف الذى يسعى اليه الانسان .

. . . الفلسفة الاروبية الحديثة

بعثت المشكلة من جديد مع الفلسفة الحديثة فى اوروبا . فمع ديكارت برزت الثنائية فى صورة حادة ، الثنائية بين الفكر والامتداد (المادة) . ولم يستطع ديكارت الانتقال من الفكر الى الوجود الا بافتراض انه غير خداع ، جعله قنطرة بينه كذات مفكرة وبين العالم الخارجي ، الشيء الذى لم يكن يخلو من صعوبات منطقية . وقد حاول سبنوزا حذف هذه القنطرة بأن وحد بين الوجود والفكر ، بين الله والعالم ، معتبرا الوجود واحدا : الله والطبيعة عنده شيء واحد . الله هو الطبيعة الطابعة ، اى الطبيعه اذا نظر اليها من خلال فعلها ، اما اذا نظر اليها من خلال انفعالها فهي الطبيعة المطبوعة . وعندما تقدمت العلوم الحديثة ابتداء من جاليلو ونيوتن واصبح فى الامكان تفسير كثير من الظواهر الطبيعية والتنبؤ بها ، قامت نزعة علمية ميكانيكية تحاول تفسير كل مظاهر الطبيعة والحياة بمبدأين اثنين : المادة والحركة ، بل قامت اتجاهات تفسر الروح او الفكر تفسيرا آليا فاعتبرته نتاج الدماغ : التفكير يفرزه الدماغ مثلما تفرز الكبد المادة الصفراء . وكان هناك من حاول اقامة التوازى بين كل ما هو فكرى وما هو جسمي .. ومع بداية القرن العشرين حدثت ثورة فى الفيزياء ، وذلك عندما استطاع العلماء ان يقتحموا لاول مرة مجاهيل الذرة التي كانت تعتبر الى ذلك الوقت أصغر جزء من المادة . وهكذا تبين ان الذرة نفسها مركبة ، وانها عبارة عن بنية من الشحنات والالكترونات ، وبالتالى تبين خطأ ذلك التصور المشخص للمادة باعتبارها شيئا جامدا صلبا ملموسا .. هنا قامت صيحات تنادى وتقول للماديين ، اين المادة التي جعلتموها اساسا لكل شيء . ها هي المادة تتلاشى وتصبح عبارة عن طاقه ، او عبارة عن كائنات اشبه بالكائنات الروحية . بل اكثر من ذلك تبين ان قوانين العلم الطبيعي على المستوى العادى لا تنطبق على المستوى الذرى ، من ذلك مثلا ان الكائنات فى المستوى الذرى ، لا تخضع للحتمية بالشكل

المتعارف عليه ، بل هى تتأثر بالقياس وادواته ، وبالتالى تكون معرفتها غير موضوعية لانها تتعلق بالذات العارفة ووسائلها .. ومن ذلك ايضا ان الزمان والمكان وبالتالي الحركة ، لم يعودا مطلقين كما تصور نيوتن ، بل لقد اتضح مع للنظرية النسبية انهما نسبيان ، ويتعلقان بالسرعة . فلكل مسافر زمنه الخاص اذا كانت سرعته عظيمة وقريبة من سرعة الضوء . هذه الكشوف العلمية استغلت القول بأن المعرفة التى يكتسبها الانسان عن الواقع لا تعكس حقيقة هذا الواقع كما هو ، بل هي مزيج من معطيات الواقع وتصورات الذات .

هنا اذن تطور النقاش واصبح يستغل ارقي ما وصل اليه العلم من آراء ونظريات .. ولكن دون جدوى . لان المسالة الواحدة يمكن ان تستغل ايديولوجيا فى أتجاهين متناقضين ، وليس بامكان العلم ان يثبت ايهما السابق المادة او الفكر ، لان البحث فى هذا المجال خارج اهتمامه ، فالمسألة لا تدخل فى مجال العلم الا اذا كانت تقبل القياس بشكل من الاشكال . وكيف يمكن استعمال القياس او التجربة فى هذا المجال . ان العلم لم يصل بعد الى ما يمكنه من ذلك .

المادة مقولة فلسفية ، والمهم هو اعتبار العالم الخارجى مستقلا عن الذات

عالج لينين المسألة ، ونادى عند نهاية التحليل بأن المادة مقولة فلسفية ، وان اسبقية الوجود على الوعى او الوعي على الوجود هى مسألة فرضية ، والمهم هو النتائج التي تستخلص من هذه الفرضية او تلك .

ومعلوم ان النتائج التى يمكن استخلاصها من هذا المنطلق او ذاك يختلف باختلاف الاهداف التي يراد التوصل اليها .. فالاهداف فى الحقيقة هي تحدد شكل الفرضية ونوع المنطلق . واذا نحن رجعنا الى التاريخ نجد ان المسألة تختلف باختلاف العصور ؛ فليس من الصواب القول بأن الفرضية التى تقول باسبقية الوعي على انوجود كانت تكرس الظلم والاستغلال دوما ولا ان النظرية المعاكسة كانت دوما

ضد الظلم والاضطهاد .. فالتاريخ لا يعرف طريقا واحدا ، بل عدة طرق .. والمصالح لا تكتفي بطريقه واحده في خدمة نفسها بل تسلك طرقا متعددة .

وعلى العموم فمسألة العلاقة بين الوجود والوعي في نظر الماديه الجدلية تتلخص في مبدأين اثنين :

اولا : ان المادة مقولة فلسفية ، والحركة شكل من اشكالها ، والمقصود بذلك هو ان الواقع الموضوعي مستقل عن الذات المفكرة .. ان التاكيد على هذا الاستقلال هو من الاهمية بمكان . اما القول بأولوية هذا الجانب او ذلك على الصعيد الانطولوجي فهو مسألة فرضيه والمهم هو النتائج التي تستخلص منها .

ثانيا : ان المعرفة التي يكتسبها الانسان عن الواقع ، تتم بشكل جدلي . ومعنى هذا انه ليست هناك ثنائية مطلقة في هذا الصدد ، ليس هناك الفكر من جهة ، والواقع من جهة ، مفصولين احدهما عن الاخر .. بل هناك رابطة بينهما هي اساس المعرفة ، هذه الرابطه هي الفعل البشري . فالفعل البشري هو مقياس الصحة والخطا . ان موضوع الفكر هو الواقع ، وطريقه الى معرفة هذا الواقع والسيطرة عليه هو الفعل الانساني ، هو الممارسة . فبالنشاط العملي يكتسب الانسان معرفة عن الواقع ، وبالنشاط العملي يتاكد الانسان من صحة هذه المعرفة او عدم صحتها . وبما ان الفعل البشري يتطور بتطور ما يستعين به من ادوات وآلات وما يكتسبه من خبرات ويتقدم بتقدمها ، فان المعرفة ستكون بالضرورة تطورية هي كذلك.. فليس هناك حقائق مطلقة ، خالدة سرمدية ، بل هناك معرفة بشرية تنمو بنمو الوسائل التي يستعين بها الانسان في اكتساب المعرفة ، ومن جملتها فكره ذاته .

العلاقة بين الوجود الاجتماعي والوعي الاجتماعي

بعد هذا نعود الى عبارة ماركس التي انطلقنا منها لننظر الى العلاقة بين الوجود والوعي الاجتماعي كما تفهمها الماركسية .

لنلاحظ اولا ان الوعي الاجتماعي صنفان ، او مستويان : الوعي

الاجتماعى العادى ، او العامي ؛ وهو وعى عامة الناس اى تصوراتهم المشتركة التي تتناول مختلف مظاهر الحياة ، والوعى السياسى الايديولوجى ، ويتمثل فى الاراء السياسية والنظريات القانونية والاجتماعية والفلسفية وفى الاخلاق والفن . الوعي الاجتماعى العادى او العامي وعى سيكولوجي ، وهو موضوع دراسة من جانب علوم مختصة كالسيكولوجيا الاجتماعيـة وسوسيولوجية المعرفة ، وهو لا يهمنا هنا بالدرجة الاولى ، ان ما يهمنـا هنا هو الوعي السياسى الايديولوجي . والسؤال المطروح هنا هو : هل الاراء السياسية والنظريات الفلسفية والاخلاقية .. الخ هى التى تحدد شكل الوجود الاجتماعي ، شكل المجتمع على العموم ، ام ان العكس هو الصحيح ، هذه هى المسالة المهمة فى الماديه التاريخية. وعبارة ماركس التى ذكرناها سابقا تتحـدث عن الوعـى الاجتماعـى والوجود الاجتماعي . وتقول ان الثاني منهما هو الذى يحدد الاخـر : ان شكل الوجود الاجتماعى ، اى نوعية العلاقات الاجتماعية الطبقيـة السائدة ، هو الذى يحـدد الاراء السياسية والقانونية والفلسفيـة .. الخ ، وبالتالي يحدد شكل الدولة ووظيفتها ، ومن ثمة فالتاريخ وتطـوره لا يحـدده الوعي ، اى الفكـر والقوانين والسياسة والاخلاق ، بـل يحدده شكـل العلاقـات السائـدة فى المجتمـع .

قديما ، وقبل ظهور الماديـة التاريخية ، كان الفهم السائد للتاريخ هو ان آراء النـاس والايديولوجيات عامة ، هي التى تؤثر فى حركـة التاريـخ وتطـوره . فالتاريخ بهـذا الاعتبار هو تاريخ العظماء والحكام، لا تاريـخ الشعـوب والجماهير . وبطبيعة الحال فان فهم التاريخ بهذا الشكـل يدفـع الى التقليل من دور الجماهير ويعمل على طمـس الصراعات الاجتماعيـة .

هذا الفهم المثالي للتاريخ هو انعكاس مشـوه للواقع التاريخـى الاجتماعي فى الفكر البشـرى ، منذ انقسام المجتمع الي طبقـات وانقسام العمل الى يـدوى وفكرى . ان نشاط الجماهير فى مثل هذا الفهم يؤخذ كنشـاط ثانوى فى حين ينظر الي نشاط الحكام كنشاط رئيسي ، كاساس لعملية التاريـخ .. وايضا ادى انقسام العمـل الى فكرى ويدوى الى التمييـز المطلق بين حياة النـاس المادية وحياتهم الروحية ، الشـىء الذى يتجلـى فى الميتولوجيا الشعبية وفى الفلسفة . وبطبيعة الحال فان اعطاء الاهمية للحيـاة الفكرية ادى الى احتقـار الحياة المادية واعتبارها

من مرتبة دنيا .. ومن هنا ذلك التصور الذى يجعل الحياة المادية المحسوسة خاضعة للحياة الروحية والفكرية ، وبالتالى ادى الى القول بجبرية عمياء تتحكم فى مصير الانسان ، أن هذا التصور يكرس سلبية الجماهير ويجردها من القوة ويدفعها الى الخضوع والاستسلام، فالغنى غنى لانه مكتوب له ذلك ، والفقير فقير لانه مكتوب عليه ذلك . هذا التصور الجبرى هو سلاح الطبقات المستغلة فى تبرير التفاوت الطبقي ، فى تبرير الغنى والفقر . ومع ذلك فقد كان ينظر دائما الى هذا التفاوت كشيء يجب التخفيف منه ، وذلك بمخاطبة ضمائر الاغنياء واشعارهم بالم الفقراء . وبما ان الفكرة السائدة فى هذا التصور هو ان آراء الناس هى التي تحدد تصرفاتهم وشكل وجودهم الاجتماعى ، فقد كان الاصلاح يتجه الى «اصلاح الوعى». وهكذا اصبح كل من الظلم الاجتماعي والعدل الاجتماعي قضية اخلاقية فقط . اما الصراع الاجتماعى فلم يكن ينظر اليه الا على انه نتيجة للصراع الفكرى او الدينى . هكذا مثلا كانت الحروب الدينية فى القرون الوسطي تعزى الى اختلاف المذاهب ، والنحل وصراعها . ولقد كان الامر كذلك اذا نظرنا الي الامور نظرة سطحية ، فلقد كان الغطاء الايديولوجي يخفي الصراع الطبقي لان هذا الاخير لم يكن قد تبلور بشكل كاف ، لكون قوى الانتاج لم تكن متطورة هى الاخرى بشكل كاف .

اما عند قيام الثورة الصناعية فى اوربا اى فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر فلقد ادى تطور قوى الانتاج الى ابراز العامل الاقتصادى كمحرك اساسى فى الصراعات الاجتماعية والفكرية على السواء . واتضح منذ ذلك الوقت بشكل جلي ان آراء الناس تختلف وتتصارع — سياسيا وايديولوجيا — لانها تعكس مصالحهم المختلفة المتصارعة وتعمل فى نفس الوقت على خدمة هذه المصالح : كل يؤول الاشياء حسب مصلحته ، كل يبحث ، عن وعي او عن غير وعي ، عن التأويل المطلوب تبعا لهذه المصلحة . هكذا ظهر جليا ان الواقع الاجتماعى الاقتصادى هو المحدد الاساسى لكل ما هو سائد فى ميدان الفكر من آراء ونظريات فى السياسة والقانون والفلسفة والاخلاق .

دور الفكر فى التغيير الاجتمـاعى

هذا هو المبدأ . ولكن المبادىء فى المنطق الجدلى ليست جامـدة ولا ثابتـة على حالة واحدة . ان الفهم الجدلى يفرض علينـا ان ننظر الى تبـادل المواقع بين الاسباب والنتائـج. فالاسباب قد تصبح نتائج، والنتائج قد تلعب دور الاسبـاب . ولذلك سيكون من الخطأ اذا نظرنا الى الفكـر او الوعى كمتغير تابع للوجود الاجتماعى ، بل يجب ان ننظر اليه ايضـا كمتغير اساسى يعمل على احداث تغيرات فى الوجـود الاجتماعـى نفسـه .

ان الانسان يغير الواقع ، ويسيطر على الطبيعة بقواه الجسديـة والفكرية معا . فالفكـرة قوة بدونها تصبـح القوة الجسدية فوضويـة غير منظمة وعديمة التأثير ، تماما كما هو الشأن عند الحيوان . ان الانسان حيوان عاقل ، يعقل الامـور ، اى يربط بعضها ببعض ، ويعمل على اخضاعها لارادته بشتـى الوسائل . وقـوة الفكر هذه تصبح جبـاره اذا تجسمت فى عمل الجماهير . حينئذاك تصبح قـوة «تعقل» الواقع ، اى تعمل على السيطـرة عليه وتغييره . ومن هنا اهمية الفكر فـى الصراع الطبقـى ، وفى صنـع التاريـخ .

هذا من جهة، ومن جهة اخرى، يجب أن لا ننظر الى الوعى الاجتماعى كوعى ينشـأ من العـدم لدى هذه الطبقة او تلـك بمجرد قيامها ، ان الفكر ، اى الاراء السياسية والايديولوجيا عامة ، لا تنشأ من العـدم لدى هذه الطبقـة او تلك ، لدى هذا الفرد او ذاك . بل ان الفكـر واشكاله المختلفـة يتمتع باستقلال واستمرار لسببين . ان الظـروف الاقتصادية الجديدة لا تنشىء وعيا جديدا كل الجـدة ، لا تنشئه مـن العدم ، بل تعطـى للوعى السائـد مضمونـا وشكلا جديدين . هكذا يتغير المضمون مع بقاء القوالـب هى هى ، فى احيـان كثيرة .

لننظـر مثلا الـى الفكـر الاسلامى :

لقد جاء الاسلام بثـورة عقائدية وفكرية واجتماعية واقتصاديـة ، قام الاسلام ضد الظلم والطغيان الذى سـاد فى المجتمع العربـى فى الجاهلية ، وقـام ضد عبادة الاوثان كيفما كانت هذه الاوثـان .. ولكن الاسلام لم يرفـض بشكل مطلق وكامل جميع ما كان سائـدا فى الجاهلية

من آراء وسلوك .. بل لقد احتفظ بكثير مما كان موجودا . وطور ما احتفظ به ، واعطاه مضمونا جديدا .. ولكن عندما تطورت الاوضاع الاقتصادية الاجتماعية ، وأصبح «المترفون» يمارسون سيطرتهم من جديد ، ظهرت آراء تعطي للمفاهيم والمبادىء الاسلامية الثورية مضامين رجعية . فسادت الجبرية ، وساد التواكل ، وسادت روح الاستسلام . كل ذلك باسم الاسلام وباسم تعاليمه ، وهي منه براء .

واليوم نشاهد في العالم العربي والاسلامي اختلافا في فهم الاسلام كما كان الشأن دائما ، فريق يحافظ على نفس المضامين القديمة ، لان في ذلك حفاظا على مصالحه ، وفريق يعطي للمبدىء الاسلامية مضمونا جديدا يعبر عن مطامح القوى الثورية الصاعدة . الاسلام واحد ، ولكن التأويلات والاجتهادات تختلف ؟ لماذا ؟ لان المصالح تختلف. والاراء الجديدة التي تظهر بهذا الشكل او ذاك هي جديدة فقط لانها تريد ان تعطي تأويلا وتفسيرا للمبادىء والمفاهيم بالشكل الذي يخدم مصلحة اهلها ومطامحهم .. والمهم بالنسبة الينا هو معرفة اي الناس يستعمل القديم لخدمة الواقع الفاسد ، واي الناس يستعمله لخدمة المستقبل، مستقبل الجماهير الكادحة المحرومة .